

تاريخ صناعة النسيج في الاسكندرية

في عصر البطلمية

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

من مزايا مصر أن الباحث يستطيع أن يتابع فيها تطور الحضارة الانسانية في أدوارها المختلفة ، ففيها ترك الانسان آثاره منذ د ب على ظهر الارض حتى اليوم : فيها آثار ما قبل التاريخ ، وفيها آثار العصور القديمة ، وفيها آثار العصور الوسطى ، وفيها آثار العصور الحديثة . والفضل في ذلك راجع أولا الى النيل واهب الحياة والحضارة لمصر ، وثانيا الى التربة التى جمعت بين الخصوبة والجفاف ، وثالثا الى ذلك المناخ المعتدل الجميل الذى ساعد على بقاء ما خلقه الاولون من آثار قيمة تفصح عن مدى رقى المصرى وتقدمه .

ومن خير ما احتفظت به مصر في جوفها تلك الكميات الوفيرة من المنسوجات القديمة التى أظهرتها الحفائر الاثرية والتى تدل رقة نسجها ، ودقة رسمها ، وجمال ألوانها على ما بلغت هذه البلاد من الدرجة السامية في صناعة المنسوجات في العصور القديمة والوسطى .

ومن الطبيعى قبل أن تفصل القول في تاريخ صناعة النسيج في مدينة الاسكندرية في عصر البطالمة أن نشير في ايجاز الى ما كانت عليه هذه الصناعة في مصر قبل تأسيس هذه المدينة في سنة ٣٣١ ق م ، فصناعة النسيج من أقدم الصناعات التى عرفها الانسان ، لان الملابس من الضروريات التى لاغنى له عنها . وقد كانت تصنع في عصور ما قبل التاريخ في الاكواخ التى سكنها اجدادنا ، وظلت في العصور التاريخية - كما كانت - صناعة منزلية ، فالفقراء يفرلون وينسجون ما هم في حاجة اليه من أقمشة ، والاعتياء لهم خدمهم الذين يقومون لهم بهذه الاعمال ، وتدرج الانسان في سلم الحضارة أصبحت هذه الصناعة مهنة مستقلة اتخذها كثير من الناس أداة لكسب معاشهم .

وإذا بحثنا عن صور تمثل هذه الصناعة على جدران المقابر الفرعونية في العصور التاريخية لم نجدها الا في قبور الدولتين الوسطى والحديثة «١» . أما مقابر الدولة القديمة التي كشفت حتى اليوم فلا وجود لها فيها ، ولعل ذلك راجع الى أن صناعة الغزل والنسيج كانت تعتبر في عصر الدولة القديمة عملا عاديا بسيطاً ليس في حاجة الى أن يثبت على جدران المقبرة أما في عهد الدولتين الوسطى والحديثة فقد ارتفع شأنها واتسع نطاقها وأصبح لها مركز ملحوظ ، وصار الملوك والامراء وكبار الموظفين يفاخرون بجيازتهم لمصانع النسيج في قصورهم «٢» . وقد مكنتهم ثروتهم من أن يستخدموا أمهر الصناع والفنانين وأعلى المواد الخام «٣»

وكما كان للملوك مناسجهم الخاصة في قصورهم كذلك كان للكهنة مناسجهم الخاصة في المعابد حيث تنسج الكميات الوفيرة من الاقمشة اللازمة للطقوس الدينية وللكهنة على السواء «٤» .

ولقد عرفت مصر الفرعونية كيف تعطى العالم أدق أنواع المنسوجات والادلة المادية التي تشهد بذلك كثيرة قد يخطئها العمد ، فمن العصور السابقة على عصر الاسرات وصلت اليها اقمشة تنطق بأن النسيج المصرى قد تجاوز في هذه الصناعة المرحلة البدائية بكثير «٥» . ومن عصر الاسرات وجدت أمثلة من الكتان الرقيق عليها كتابات وزخارف غاية في الدقة والجمال ولا يتسع المجال لكى نذكرها جميعا انما نكتفى بذكر أمثلة ثلاث :

1. Newberry, *Beni-Hassan*, pl. XXIX, *Al-Bersha I*, pl. XXVI; Davies *Five Theban Tombs*, pl. XXXVII.

2. Kees, *Aegypten* p. 72

(٣) لقد عاش هذا النظام على مر العصور تحت أسماء مختلفة ، ففي عصر البطالمة كان في الاسكندرية مصنع خاص لنسج الصوف للملكة كليوباترا ، وفي عصر الرومان كان في تلك المدينة مصنع للنسيج عرف باسم الجنسيم *Gynaceum* وفي العصر الاسلامى عرف باسم « دار الطراز » .

4. Lutz, *Textiles and Costumes among the people of the ancient Near East* p. 59.

5. Reifstahl, *Patterned Textiles in Pharaonic Egypt*. p. 1

الاولى وجدت في مقبرة الدير البحرى ترجع الى الاسرة الحادية عشرة وقوام زخرفتها أشرطة من خطوط منكسرة مكونة من خمل بارز على سطح القماش ، والواقع أن اتقان هذه الطريقة الفنية للنسيج ليعتد على الدهشة ويكشف عن مهارة النسيج المصرى فى ذلك العصر السحيق «١» . والمثال الثانى قطعة من الكتان تحمل اسم الملك امنحتب الثانى أحد ملوك الاسرة الثامنة عشر منسوجا داخل منطقة بيضاوية الشكل ، وتزدان بأشرطة ثمانية من زخرفة نباتية نشاهد فيها أزهار عرائس النيل (اللوتس) وبراعمها «٢» . والمثال الثالث يتكون من عدة قطع عثر عليها فى مقبرة توتعنخ آمون وهى تزدان بزخارف شتى «٣» .

على أن الأدلة التى تثبت مهارة النسيج المصرين القدماء لا تقف عند حد هذه الامثلة الملموسة التى ذكرناها بل أنا لنشاهد على جدران بعض المعابد صوراً تمثل ملابس مزخرفة بحروف هيروغليفية أو أشكال هندسية ، وأخرى شفاقة تنم عما تحتها «٤» ، كما قرأ فى هيرودوت وصفا شيقا لرداء من كتان بعث به الملك أمازيس أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين الى حكومة أسبرطة على سبيل الهدية «٥» .

ولقد اشتهرت مصر بزراعة الكتان فى العالم القديم ، وجدران آثارها غنية بالصور التى تجلو علينا زراعة هذا النبات وطريقة نسجه «٦» . ولنا نعرف عن استعمال الصوف فى ذلك العصر شيئا ، بل أنه لا توجد فى اللغة

1. Riefstahl, *op. cit* p.p. 17 & 20.

2. Newberry and Carter, *The Tomb of Totmes IV, Cat. Gen. Ant. Egypt. Mus. Cairo*, Nos. 46001-46529, p. 143 ff.

3. Carter-Mace, *The Tomb of Tutankhamun* 1 p. 167 ff., III p. 124. ff; Pfister, *Les Textiles du tombeau de Toutankhamun*, Rev. des arts Asiat., I. XI, p. 207 ff.; Riefstahl, *op. cit* p. 24 ff.

4. Riefstahl, *op. cit* p. 39.

5. Herodotus III, 47 (Godley's translations in Loeb Library edition).

6. Erman-Ranke, *Aegypten und aegyptisches Leben in Altertum*, p. 536; Sellm Hassan, *Misr ol-qadima*, p.p. 85-86.

المصرية القديمة كلمة تعنى الصوف «١» . وأما عن زراعة القطن ونسجه في مصر في ذلك الوقت فلم نهتد بعد الى وثيقة تثير لنا السبيل في هذا الموضوع «٢» .

وأنواع المنسوجات الفرعونية كثيرة ، وقد استمدت اسماءها أما من اللون الذي كانت تصبغ به ، أو من عدد الخيوط التي كان يتكون منها كل من اللحمة والسدى «٣» . ومن أشهرها اليبسوس Byssus الذي قال عنه هيرودوت «٤» أن المصريين القدماء استعملوه في لف موميائهم . ويقول Loret «٥» أن كلمة «يبسوس» مرادفة للكلمة الهيروغليفية نيسوت Nisut التي تعنى « ملكى » مما يدل على أن هذا النوع من النسيج كان من أحسن الأنواع وأرقها .

وقد عرف الفراعنة الطرق المختلفة لزخرفة المنسوجات فرقموا عليها بالاصباغ رسوما مختلفة «٦» ، أو نسجوها من خيوط مختلفة الالوان «٧» ،

1. Lutz, *op. cit.* p. 24.

2. Griffith and Crowfoot, *On the Early Use of Cotton in the Nile Valley*, *J.E.A.* XI, 1934, p. 5 ff.

3. Lutz, *op. cit.* p. 55.

4. Herodotus, II. 86.

5. Loret, *L'Egypte au temps des Pharaons*, p. 178.

(٦) لعل هذه الطريقة Painting هي أقدم طرق الزخرفة على المنسوجات

(٧) في المنسوجات المزخرفة بهذه الطريقة woven patterned تكون خيوط

اللحمة من لون وخيوط السدى من لون آخر وتقاطع هذه الخيوط معا يحدث الزخرفة .

أو طرزوا عليها أشكالاً متباينة (١) أو نسجوا في أجزاء منها وتخاريف شتى (٢) كما استعملوا أيضاً طريقة الإضافة (٣) ، وعرفوا كيف يزينون أقمشتهم بالخمل (٤) .

وأسس الإسكندر مدينة الإسكندرية عام ٣٣١ ق.م. وسرعان ما تقدمت ونهضت حتى أصبحت في مدى عشرات من السنين أهم مركز للحضارة ، وارتقت الحياة فيها رقياً جعلها تسحر بجمالها الباب المعاصرين على حد قول برشيا (٥) . ووصلت في عصر البطالمة هذا إلى ذروة الحضارة .

وانعكست حياتها المترفة بأجلى صورة في كتب الأدباء الاقدمين ، ولاغرو فالادب مرآة صافية تنعكس فيها حياة العصر . ويكفيها هنا أن نشير الى ما يتعلق بالمتسوجات التي هي موضوع بحثنا ، فالستاير الأرجوانية اللون التي كانت تزين جدران القصور ، والطنافس التي هي أجمل من النوم الهنيء كما يقول الشاعر ثيوكرتس (٦) « والملابس التي تزدان بصور

(١) بعد الانتهاء من نسج القماش تطرز عليه الزخارف بالابرة Embroidery

(٢) هذه الطريقة Tapestry قد حدقها اجدادنا الفراعنة وبلغوا فيها شأوا عظيماً وقد ورثها عنهم احفادهم وحافظوا عليها طوال العصور ، وكانت المنسوجات التي تزين بهذه الطريقة تنسج بالطريقة العادية للنسيج أي تقاطع خيوط اللحمة بخيوط السدي حتى اذا وصل النساج الى النقطة التي يريد عمل الزخرفة فيها أوقف عملية الحشو بخيوط اللحمة وأخذ في عمل الزخرفة بخيوط جديدة تختلف في لونها عن خيوط اللحمة الاصلية - وقد تختلف عنها في نوعها - وذلك ينتج هذه الخيوط الجديدة مع خيوط السدي الاصلية ، وبعد الفراغ من عمل الزخرفة تنظم خيوط السدي كما كانت من قبل ثم تستأنف عملية النسيج التي كانت تزاوّل قبل الزخرفة .

(٣) تشبه هذه الطريقة (Appiqué) طريقة التطريز ولا تختلف عنها الا في أن الزخرفة تعمل فيها بواسطة اشرطة من القماش بدلاً من خيوط الحرير أو الصوف .

(٤) تتركب الإقمشة ذات الخمل، looped من نسيج تحتاني يسمى الوقعة ونسيج فوقاني يسمى الخميعة وهذه الخميعة تتكون من خيوط متصلة غير مقطوعة .

5. Bréclla, *Alexandria ad Aegyptum*, p. 26.

6. Theocritus, *Idylls*, XV, p. 78 ff.

الملوك ، والاقمشة الرائعة التي تقص علينا بزومها الكثير من القمص
الخرافي ، والاردية الرقيقة التي تشف عما تحتها ، والمنسوجات التي تزدان
بخيوط الذهب «١» .

ويخلص لنا من هذه النصوص الادبية :

أولاً - أن الترف في المنسوجات كان ملحوظاً في هذا العصر وهو
يتجلى في الملابس والطنافس والخيام والستائر والتمارق .

ثانياً - أن الاسكندرية كانت تستورد الطنافس من ايران والشيلاان
من اليونان علاوة على ما كانت تنتج الانوال المصرية .

ثالثاً - أن هناك أنواع شتى من الاقمشة منها الطنافس ذات الخمل
والاكلمة والاقمشة الشفافة والملابس التي يدخل في نسجها الذهب .

رابعاً - أن الزخارف التي كانت تزين منسوجات هذا العصر هي صور
الملوك والمناظر المستمدة من القصص الديني .

تري هل كانت الاسكندرية مركزاً لصناعة هذه الاقمشة التي أشار
اليها الكتاب والمؤرخون أم كانت مركزاً تتجمع فيه المنسوجات التي تصنع
في داخل البلاد بقصد التصدير أو الاستهلاك المحلي ؟

في الواقع لقد كانت الامرين معا : كانت مركزاً لصناعة النسيج وكانت
مركزاً لتصدير المنسوجات ولدينا من الوثائق القديمة ما يثبت ذلك ويكفي
أن نشير الى نسيج البوليميتا Polymita الذي اخترعه نساج الاسكندرية
في هذا العصر وكانت له شهرة واسعة في العالم «٢» .

1. Athenaeus, *The Deipnosophists* IV, 147 f., V, 196 B,C,F; 197 B,
198 C.

2. P. Petrie III No. 120. ترجع هذه البردية الى النصف الثاني من القرن
الثالث قبل الميلاد .

والذى يؤسف له حقا أننا لانملك أية وثيقة تكشف لنا عن نظام صناعة المنسوجات فى الاسكندرية فى عصر البطلمة هذا ولكن هناك وثائق شتى تتحدث عن صناعة المنسوجات فى مصر عامة ، وليس هناك سبب معقول يحملنا على الاعتقاد بأنها لاتنطبق على الاسكندرية كذلك ، فالاسكندرية جزء من مصر يجرى عليها ما يجرى على غيرها من بلاد القطر .

ولقد حافظ الكتان على المكانة السامية التى كان متمتعاً بها فى مصر فى العصر الفرعونى فعنى البطلمة بزراعتة وأشرفوا بدقة على صناعته ، ولعل أهميته بالنسبة للحكومة تتجلى من بردية نعرف منها مدى حاجة الحكومة الى زراعتة فقد كانت تحدد سنويا المساحة التى كانت تخصص له ، وكانت تمد الزراع الذين تعوزهم البذور بها أو بثمانها لتداركها «١» . وكان على الزراع أن يبيعوا مقدارا معينا من كنانهم الخاص الى الحكومة بثمان تحده لهم وهم بعد ذلك أحرار فى التصرف فيما بقى لديهم من كنانهم «٢» .

وإذا كان الكتان قد احتفظ بمكانته القديمة فإن الصوف قد ارتفعت أهميته الى درجة لم تكن له من قبل وهذا أمر طبيعى لانه المادة الاولية التى كان يتخذ البطلمة منها ملابسهم قبل أن يقدوا الى مصر ولذلك نجد أن الحيوانات ذات الصوف كانت موضع عناية البطلمة «٣» ، ومن بلاد العرب والحبشة استوردوا الاغنام بل واستحضروا معها الاعراب لكى يعنوا بها «٤» . وإذا كان من الميسور أن تضبط الحكومة زراعة الكتان

1. P. Tebt. No. 769.

ترجع هذه البردية الى سنة ٢٢٧ - ٢٢٦ او ٢١٢ - ٢١١ ق . م .
The Tebtunis Papyri, (Egyptian Exploration Fund)

2. The Revenue Laws of Ptolemy Philadelphus, 107.2; Edgar, Zenon Papyri, No. 59470 (Cat. Gen. Ant. Egypt. Mus. Cairo.)

3. Rostovzeff, *A large state in Egypt in the 3rd. Cent. B.C.*, p. 107

4. P. Hibeh, 36 (The Hibeh Papyri, Egyptian Exploration Fund);

Zenon Papyri No. 57433, Cat. Gen. Ant. Egypt, Mus. Cairo.

وتحدد المساحة اللازمة لزراعته فان من العسير عليها اتباع ذلك فيما يختص بالصوف «١» ، ولذا كان الصوف والمنسوجات الصوفية حرة التداول «٢» .

أما القنب الذي كان يستعمل في عمل الجبال والشباك وغيرها فلا تعرف عنه الا القليل أما القطن فلم يرد له ذكر في النصوص البردية ولكن لا يبعد أنه كان مستعملا في هذا العصر ولا شك أن استعماله كان أقل أهمية من الكتان والصوف والقنب «٣» .

وللحرير قصة شيقة تعود بنا الى الورااء عشرين قرنا قبل الميلاد عندما لاحظت احدى أميرات الصين عن غير قصد ديدانا صغيرة تعيش على أوراق نبات التوت ، وقد أغراها هذا المنظر على التدقيق في ملاحظتها فعرفت كيف تربي هذا الدود وكيف تحصل على خيوط الحرير من شرايقه . وقد حفظ لها بنو قومها هذا الصنيع ، فرفعوها الى مقام الالهة «٤» ، وسرعان ما تعلم الصينيون صناعة الحرير وأتقنوها واحتفظوا بسرهما لانفسهم واعتبروا اذاعة هذا السر أو تصدير بويضات ديدان القز جريمة كبيرة عقابها الموت «٥» . ولقد عرفت الاسكندرية الحرير الصيني في القرن الاول قبل الميلاد «٦» ، وقد كان احدى السلع التجارية الهامة في عصر البطالمة «٧» ، ويقول تارن

(١) الدكتور ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ج ٢ ص ٥٤٤

2. P. Enteuxels No. 2, *Requête et plaintes adressées au Roi d'Egypte au IIIe. siècle avant J.C., Textes et documents. Le Caire.*

وهنا ينبغي الإشارة الى ان Tarn في كتابه Hellenistic Civilization p. 165. يقول أن كل الكتان وربما كل الصوف كان يباع للملك بأسعار محددة

3. Blumer, *Die Gewerbliche Tätigkeit der Volke des Klassischen Altertums*, p. 10 as quoted by Toutain, *The Economic Life of the Ancient World*, London, 1930, p. 127.

4. Algoud (Henri), *La soie, art et histoire*, Paris 1930, p. 1 ff.

(٥) سوف نرى - فيما بعد- أن هذا القانون قد خرق وأن هذا الاكتشاف

قد ذاع سره في القرن الرابع بعد الميلاد .

6. Tarn, *Hellenistic Civilization*, p. 224.

7. Lutz, *op. cit* p. 36.

Tarn أن الملابس الحريرية التي كانت ترتديها الملكة كليوباترا نسجت
تأ أغلب الظن - من الحرير الصيني «١» .

- وقد كان للملكة سافرة الذكر مصنعا لنسج الصوف بالاسكندرية «٢»
وليس ذلك بجديد على مصر فقد كان للملوك في العصر الفرعوني مصانع
خاصة للنسيج . ولا ينبغي أن ننسى أن هذا هو المصنع الحكومي الوحيد
للنسيج الذي نعرفه في عصر البطالمة ، وقد وجد في الفترة السابقة مباشرة
للفتح الروماني كما يقول بيرسون «٣» ، على أنه ليس هناك ما يمنعنا من
الاعتقاد بأن هذا المصنع كان موجودا طوال عصر البطالمة ، فالمصانع
الحكومية للنسيج أمر كان معروفا في مصر قبل البطالمة واستمر قائما
على عهدهم .

وتدلنا النقوش الموجودة على حجر رشيد «٤» المشهور أن المعابد في
العصر الذي تحدث عنه كانت تضم بين جدرانها مصانع للنسيج كما كان
الحال من قبل ، وأنها كانت تنتج النسيج المعروف باسم اليبسوس "Byssus"
الذي أشرنا اليه من قبل والذي كان أكثر ما يستعمل حينئذ في لف مومياء
العجول المقدسة ، وقد كان الكهنة في بعض الاحيان يقايضون بهذا النسيج
على البخور والعطور من بلاد العرب ، وقد ثبتت هذه المقايضة بكتابة
تاريخية ترجع الى عصر بطليموس الثاني «٥» .

1. Tarn, op. cit p. 225.

(٢) يقول اوراسيوس (IV, 19, 20, 21) ان اكتافيوس عندما فتح الاسكندرية
اعدم افيثوس أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذي حط من كرامته
وكرامة الرومان في شخصه بقوله من الملكة كليوباترا وظيفة مدير مصنع نسج
الصوف الذي يتبعها .

3. Persson, Staat und Manufaktur im Romischen Reiche, p. 129.

4. Bevan, A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty p. 42.

(٥) ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة ص ٥٤٧ والمراجع التي
يشير اليها .

وكان على المعابد أن تقدم من نسيج اليبسوس ضريبة عينية للملك فان لم تقم بذلك فرضت عليها غرامة مقررة ، وبطليموس الخامس في المرسوم المنقوش على حجر رشيد سالف الذكر يعفى المعابد من ثلثى تلك الضريبة ومن دفع الغرامة المقررة بسبب عدم تقديم الكميات المحددة من هذا القماش ومن نفقات فحص الاقمشة التي قدمت للملك من حيث جودتها وكميتها .

وهناك أمر ملكي صادر من بطليموس السابع «١» يعفى به المعابد من المبالغ المستحقة عليهم لعدم تقديم كمية المنسوجات المفروضة عليهم ، ويحرم على جباة الاموال الحكومية «٢» بيع الانوال التي تستخدم في نسج قماش اليبسوس كما يحرم أيضا على أى شخص امتلاك هذه الانوال أو استخدامها فيما عدا المرخص لهم بنسج اليبسوس في المعابد لانتاج ما يحتاجه الملك والالهة الاخرى ، وليس لاحد أن يسخر هؤلاء النساج أو يشغلهم بأجور مخفضة «٣» .

وعلى أساس الوثائق التي تشير الى ما تقدم نبيل الى الاعتقاد بأن مناسج المعابد كانت حرة في انتاج ماتشاء من قماش اليبسوس طالما أنها كانت تعطى الملك الكمية المفروضة عليها ، والحكومة من ناحيتها كانت تحمي نساج هذا النوع من القماش ، من جباة الاموال الحكومية ومن تحدته نفسه في استغلالهم لصالحه وذلك معاونة منها لهؤلاء النساج على القيام بعمل ما هم في حاجة اليه من هذه الاقمشة ، ولعل هذه الحرية التي تمتع بها نساج اليبسوس كان مردها الى العامل الديني لاحتياج الطقوس الدينية لهذا النوع ذلك لاننا نقرأ في بردية «٤» أن الحكومة كانت تفرض رقابتها على انتاج قماش البوليميتا الذي أشرنا اليه من قبل والذي كان ينسج كذلك في المعابد .

1. P. Tebt. V. Línas 62-64

2. P. Tebt V. llnes 245-247

3. P. Tebt V. llnes 247-251

4. P. Petrie III, 120; Préaux, *L'économis royale des Lagides*, p. 103.

والى جانب المصنع الملكى للنسيج ومناسج المعابد كانت توجد مصانع أهلية ، ومن بردية ترجع الى عصر بطليموس السابع «أ» نستطيع أن نستخلص أن الحكومة كانت تكلف أحد موظفيها بمراقبة هذه المصانع الاهلية مراقبة شديدة وبالاشراف على ما تنتجه من المنسوجات الكتنائية ، وليس من المستبعد وجود هذه الرقابة أيضا على المنسوجات المصنوعة من الصوف . وينبغى أن نشير هنا الى أن هذه الوثيقة ليست صريحة فى الاشارة الى وجود هذه المصانع الاهلية فى مدينة الاسكندرية بالذات ولكننا على الرغم من عدم وجود وثائق تشير صراحة الى قيام صناعة النسيج الاهلية فى الاسكندرية فانه يصعب علينا أن نتصور مدينة عظيمة كالاسكندرية كان لها القدر المعلى فى صناعة النسيج ليس بها مصانع أهلية .

على أن هذه الرقابة الحكومية تدفعنا الى التساؤل هل كان انتاج المنسوجات وتداولها فى عصر البطالمة اختكارا حكوميا ؟ لقد أجاب كثير من المؤرخين والكتاب على هذا السؤال بالاجاب «أ» . ولكننا نرى أن نقف عنده قليلا لنرى ان كان هناك اختكار فعلا أم أنها مجرد رقابة من الحكومة لكى تظمن الى استمرار الانتاج فى هذه الناحية ؟ . الواقع أنه لكى نجيب على هذا السؤال اجابة صحيحة ينبغى أن نحدد معنى الاختكار أولا ثم نحاول بعد ذلك أن نرى ان كان هذا المعنى ينطبق على الحالة التى نحن بصددنا أم لا . أما الاختكار فمعناه لغويا «العقد الواحد» ، ويحتكر معناها أن يمتلك الانسان شيئا ما وأن يكون هو البائع الوحيد له . ولقد رأينا من قبل أن الحكومة لم تكن هى وحدها المالكه للمواد الخام

1. P. Tebt. 703.

2. Lumbroso, *Recherches sur l'économie politique de l'Égypte sous les Lagides*, Turin, 1870, p. 100; Bouché-Leclercq, *Histoire des Lagides*, Paris, 1903, Vol. III, p. 269 ff. ; Maspéro, *Les finances de l'Égypte sous les Lagides*, Paris, 1905, p. 62; Reil, *Beitrag zur Kenntnis des Gewerbes in hellenistischen Aegyten*, Leipzig, 1913, p. 107; Jouguet, *L'Impérialisme Macédonien de l'Orient* Paris, 1926, p. 368; Tarn, *op. cit.*, p. 165; Bevan, *op. cit.*, pp. 148 & 150; Toutain, *op. cit.*, p. 136.

اللازمة لصناعة النسيج ولم تكن هي وحدها المالكة لمصانع النسيج ، ولم تكن هي وحدها التي تبيع المنسوجات ، فالى جانب حقول الكتان التي كانت تملكها كانت توجد الحقول التابعة للمعابد والحقول التابعة للاهالي، والى جانب قطعان الاغنام التي كانت تملكها كانت توجد قطعان المعابد وقطعان الاهالي ، والى جانب مصنعها الملكي للنسيج كانت توجد مصانع المعابد ومصانع الاهالي ، ولم يكن الملك هو التاجر الوحيد فالمعابد كانت تستبدل نسيج اليبسوس بالبخور والعطور من بلاد العرب ، وكان هناك تجار يتاجرون في المنسوجات في مصر «١» و في الخارج «٢» . لم يكن هناك اذن احتكار حكومي للمنسوجات ولكن هذا لايعنى أن هذه الصناعة كانت حرة طليقة من كل قيد لان الحكومة في الواقع كانت تشرف عليها اشرفا دقيقا ولعل هذا الاشراف هو الذي دفع بعض الكتاب الى استعمال كلمة « احتكار » بدلا من كلمة « رقابة » . لقد كانت الحكومة تحدد سنويا الاراضي التي ينبغي أن تزرع كتانا ، وكانت تعطى البذور لمن هم في حاجة اليها ، وكانت تأمر النساج بأن يبيعوها كميات محدودة من الكتان، وكانت ترغمهم أن ينسجوا لها كميات معينة من الاقمشة كانت تدفع لهم أثمانها ، وامتد اشرافها الى مصانع المعابد التي كانت ملزمة بأن تقدم للملك كميات معينة من اليبسوس . ولا شك في أن الغرض من هذه الرقابة كان للاستفادة من تلك المهارة التي حذقتها المصريون في صناعة المنسوجات ، فلقد حاول البطلمة بنظامهم هذا أن يحافظوا على المستوى الذي بلغته مصر في هذه الصناعة في عصر الفراعنة ونجحوا بالفعل في ذلك وكان من أثر هذا النجاح النهوض بهذه الصناعة الى درجة عظيمة يكفي للتدليل عليها اختراعهم قماش البوليميتا الذي أشرنا اليه والقماش المعروف باسم القماش السوري "Syrian Cloth" «٣» .

1. P. Cairo-Zenon, Nos. 59148, 59319, 59328; Nashy *op. cit.*, p. 587.

2. R. Laws, cols. 93, 94; Préaux, *op. cit.* p. 111.

3. P. Hibeh 51; P. Enteuxels I; Préaux *op. cit.* p. 106 ff.

The king bought these textiles at prices fixed by him and the weavers were obliged to furnish him with a certain quantity. The wool needed for making this cloth was furnished from the royal stores and the weavers were paid by the royal bank.

ولقد كان في الاسكندرية في عصر البطالمة اتحادات للعمال عرفنا منها « اتحاد عمال شحن البضائع » ، « واتحاد عمال طحن الذرة » « ١ » . ويقول ماسبرو أن هذه الاتحادات كانت منتشرة في مصر « ٢ » . ويقرر توتان أن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن الميل الى تكوين الاتحادات المهنية كان عاما في مملكة البطالمة التي ازدهرت فيها الصناعات الى حد كبير وجذبت اليها عددا كبيرا من الصناعات « ٣ » على أنه لم يصل الينا شيء عن اتحاد عمال النسيج ونميل الى الاعتقاد في وجود مثل هذا الاتحاد في ذلك العصر الذي سمت فيه الصناعة الى درجة عالية من الرقي . وقد كان النسيج أحرارا في مزاوله عملهم بشرط أن يدفعوا ضريبة المهنة المفروضة عليهم وأن يسجوا للحكومة القدر المقرر عليهم ؛ وللتحقق من توفر هذين الشرطين كانت الحكومة تحصى عدد النسيج سنويا وقد وصلت الينا بردية تتضمن احصاء من هذا القبيل « ٤ » أما حريتهم في مزاوله عملهم فنعرفها من بردية تفهم منها أن النامس كانت تطلب الى النساكين أن يغزلوا ويسجوا لهم ملابسهم من أصواف أغنامهم « ٥ » .

ولم يصل الينا شيء من منسوجات الاسكندرية في هذا العصر الذي نتحدث عنه ، فالحفائر الاثرية التي قامت في الاسكندرية لم تكشف عن شيء من منتجات الانوال ولكنها أمدتنا بصور للمنسوجات رأيناها في مقابر البطالمة وهذه الصور تؤيد في الحقيقة ما قاله قدماء الكتاب والمؤرخين عن منسوجات الاسكندرية ، ولم يعد الاستاذ ادرياني جانب الحق عندما قال : Rarement nous avons le plaisir de constater une correspondance si significative entre les monuments et la tradition écrite « ٦ »

1. Bouché-Leclercq, *op. cit.* vol III p. 172.

2. Maspéro, *op. cit.* p. 105.

3. Toutain, *op. cit.* 135.

4. P. Cairo-Zenon, 59295

5. P. Enteuxels No. 4

6. Adriani, *La Nécropole de Moustafa Pacha.* p. 105

على أنه قد وصلت إلينا قطعة نسيج من الصوف ليس من المستبعد أن تكون من إنتاج الاسكندرية في هذا العصر ، وهي قطعة كبيرة من القماش يغلب على الظن أنها كانت جزءا من ستر كبير ، وقد عثر عليها في الحفائر الأثرية التي قامت في مدينة أنطونيو سنة ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ، وطولها ١٤٠ في ٨٧ سنتيمترا . وهي الآن في متحف الأقمشة التاريخية بمدينة ليون بفرنسا . وهي تزدان بأسمك ساجحة رسمت بطريقة غاية في الإبداع وبألوان متعددة فوق أرضية زرقاء مائلة إلى الخضرة ويبدو واضحا ظل كل سمكة حافا بها . وقد نسبها كاتب إلى إحدى الجزر اليونانية «١» ، ونسبها آخر إلى العصر الإسكندري «٢» ، وقال ثالث «٣» ان بين زخارفها وبين طراز الفن الهلينستي صلة وثيقة تتجلى لنا اذا ما قارنا بينها وبين قطعة النسيج التي عثر عليها في كرتش والتي تزدان بصور البط ، ونسبها رابع إلى أواخر العصر الهلينستي «٤» . ونحن نرى أن هذه القطعة ترجع إلى أواخر العصر الهلينستي على أساس زخارفها ولكن المشكلة هي في أي مكان من العالم الهلينستي نسجت هذه القطعة ؟ هل نسجت في إحدى الجزر اليونانية ؟ أم نسجت في أنطونيو حيث عثر عليها ؟ أم نسجت في سوريا أو آسيا الصغرى اللذين كانا من أشهر مناسج الصوف في ذلك العصر ؟ أم نسجت في الاسكندرية عاصمة البطالمة ؟ . والواقع اننا لا يمكننا أن نقطع بنسبة هذه القطعة إلى واحد من تلك المراكز على أن ذلك لا يمنعنا من أن نحاول البحث وراء أقرب هذه المراكز إلى الحقيقة . فالدعوى التي تقوم على نسبة هذه القطعة إلى إحدى الجزر اليونانية تفنقر إلى دليل تراتح إليه . والدعوى التي تقوم على نسبتها إلى مدينة أنطونيو بصعيد مصر

1. Catalogue des pièces principales exposées, Musée Historique des Tissus, Lyon, p. I. No. 2

2. Raymond Cox, *Les soieries d'Art*, pl. I. p. 47

3. Volbach, Arch. Ang. 1926, p. 239, fig 1. Beiblatt zum, J.D.A.I. 1/11.

4. Wace, *Egyptian Textiles (3rd.-8th century B.C.) Exposition d'Art Copte Le, Caïre, 1944 ; The Veil of Despoina*, n. 3. A.J.A. vol. XXXVIII p. 107 ff.

لا يمكن أن تكون مقبولة لان هذه القطعة لاشك في أنها سابقة على ظهور المسيحية وهذه المدينة انما أسسها هدریان الامبراطور الرومانى فى سنة اثنين وعشرين ومائة بعد الميلاد كما أن الموقع الذى أسست عليه لم يكن معروفا قبل عصر البطالمة أى فى العصر الفرعونى بأنه مركز لصناعة الاقمشة والقطعة كما أشرنا من قبل هيلينية وليست فرعونية . أما نسبتها الى سوريا وآسيا الصغرى والاسكندرية فأمر يدعو الى التبصر والتفكير ذلك لان هذه البلاد مضافا اليها بلاد اليونان كانت مشهورة بنسج الصوف ، والعلاقات التجارية كانت رائجة بين بعضها البعض ، والمنسوجات من السلع التى يسهل نقلها من مكان الى مكان فالى أى قطر من هذه الاقطار يمكننا أن نسب هذه القطعة اليه فى اطمئنان ؟ . الواقع أننا نجد أنفسنا أميل الى الشعور بأن مصر هى أرجح الامكنة لنسج هذه القطعة ذلك لانها كانت ذات شهرة واسعة فى المنسوجات فى العصور الفرعونية ، وقد بلغت درجة سامية من النضوج فى النسيج فى عصر البطالمة أيضا ، ثم أن دقة نسج القطعة موضوع البحث ، واتقان رسمها ينطقان بخبرة واسعة طويلة فى فن النسيج سواء فى الكتان أو الصوف ، وفى الحق أن جمال هذه القطعة الاخاذ لىذكرنا بصيحة الاعجاب التى صدرت من سيدتين زارتا قصر بطليموس الثانى وقد أخذتا بجمال الستائر المعلقة على الجدران حتى لقد صاحت احدهما لزميلتها قائلة « أنظرى أنه ليخيل الى أن الصور تتحرك ، انها ليست صورا ولكنها مخلوقات حية » « ١ » . كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأن الاسكندرية كانت المركز الذى نسجت فيه هذه القطعة .

محمد عبد العزيز مرزوق

1. Praxinoe and Gorgo, See Theocritus, *Idylls*, 15, V, 78 ff.